الزواج حاجة نفسية

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى

هذا رجل يحكم أمره على مقتضى العقل والحكمة ، وقد أمليا عليه ألا يتورط فيما تورط فيه غيره ، فيتخذ الزوجة و يعقب الولد ، محملا نفسه تبعات ما كان أغناه عنها ، مشتغلا بهموم كان فارغ البال منها . فهو ثابت العزم على العزوبة ، يزداد بها كل يوم يقينا . وفى كل حين يجادله المجادلون ولم يظفروا بإقناعه فينصرفون عنه يائسين ، ولعلهم إذا خلوا الى أنفسهم كانوا به من المعجبين . ذلك مقتضى " العقل " .

وهذا شاب فى عنفوانه صاحب لهو ومراح . انفسحت أمامه ميادين اللذة ومجالاتها ، وواتته الفرص ومحضته طيباتها . وهو إلى ذلك من القلائل المجدودين فلم يتلف فى سبيلها صحة ، ولم يهلك مالا ، و إنما كانت حياته ليلة قصف ، كلها طرب وضحك وعبث . هذا الطروب السعيد هيهات يخطر له الزواج ، وهيهات يفاتحه فيه أحد . وفيم لمثله التقيد بالزوجة وحمل هم العيال ؟ إنه — إلى خلو البال — متجدد العرس . وذلك أبلغ متعة فى " الحس " .

حالان مستعصيان ولا عجب .

على أننا لانكاد نتعود حالهما ونميل الى التسامح فى أمرهما و إقامة العذر لهما حتى نسمع ذلك العجب :

إن هذين اللذين عرفناهما من أرسخ العزاب ، لم يلبثا — بعد طويل الأمد أو قصيره — أن انتهيا كغيرهما الى الزواج .

فما القول ؟

أو نحسبها لعنة قضاء فينا وعدوى تخطف !

إننا ندع فى هذا المقام الهذر والمزاح لنقرر أن الجانب الأسمى منا لم يزل يغالب " العقل " و " الحس " حتى غلب .

فالى جانب " العقل " الذى يأمر بالأنانية، ولا يدل على غير المصلحة الشخصية، تقوم غريزة نفسية تدفع إلى العطف والتضامن والإيثار ومعاناة الجهد والمخاطرة بالدم من أجل الغير وفى سبيل صلاح المجتمع وبقاء النوع . ولولا هذه الغريزة لما خاض عنا غمرات الوغى وصمد لمكارهها الجند المدافعون ، ولا استعذب طعم الردى الشهداء المؤمنون ، ولا احتمل الأذى من أجلنا الهداة المصلحون ، ولا ارتقى علم ، ولا تقدم طب ، ولا تأسست منشآت البر والرحمة ، ولا تعاونت الجماعات على تحسين نظام العمل وتقسيم الثروة ، وما إلى ذلك من مقومات المجتمع وموجبات كمال الحضارة ، ولما كدّت الأذهان وتوجهت المساعى لتأمين المستقبل وكفالة الأجيال القادمة .

وهذه الغريزة الكامنة القوية التى تخرج الفرد من أنانيته ليخدم الجماعة فى جميع ما أوردنا هى بعينها التى تدفع الفرد — شاء أو لم يشأ — إلى خدمة النوع والقيام على بقائه عن طريق تكوين الأسرة .

ولئن كان الزواج فى ذاته تنظيما للعلاقات الجنسية فى المجتمع ، فانه — فى رسومه وملابساته وآثاره — تهذيب لما وارتقاء بها ، فهو يخلع على العلاقات الجنسية قداسة الدين واحترام المجتمع ، كما يدخل عليها الود المتبادل وروح التضامن والمشاركة على صفو الحياة وكدرها .

فالزواج بهذين الاعتبارين انتصار على أنانية العقل وحيوانية الحس .

ولسنا نزعم أن هذه الغلبة فيها القضاء على المغلوب . ولكنها على كل حال تخفف حدته ، وتحد من شرته . فاذا الحس يلطف ويشف ، واذا أنانية الفرد تتسع للأسرة .

يضاف إلى ذلك أن مطالب الأسرة حافز للرجل على مضاعفة العمل والإنتاج. والزوج يد على الأعزب بأنه يعمل من غير ملل. فان ابتسامة لطيفة من طفله ترتسم على الفم الصغير الأورد لتنسيه ما لاقاه طول يومه من جهاد ومشقة . ولما كان لابد للحياة من غرض ، فلن تجد غرضا أشيع وأدنى إلى طبائع الكافة من الأسرة . وليكن عمل هؤلاء لعيالهم ، فإنهم من حيث لا يريدون إنما يخدمون بلادهم ، بما أبلوا من عمل ، وما أنجبوا من ولد . فعلى هذين يقوم حاضر الدول ومستقبلها . وهما الضمان لعلو كلمتها وبقاء صرح عظمتها الى أبد الآبدين.

ولكن ، ألا نقول كلمة عن الحب ، ونحن بسبيل الكلام عن الزواج بوصفه حاجة نفسية ؟

الحق أنه لا أمان للحب . فإنه أحيانا مثل حريق القش يشتعل و يتعالى لهبه ، فاذا بلغ الضرام مبلغه ، لم يلبث لحظة حتى ينهار صرحه ، ويخبو سعيره بسرعة يعز تصديقها . وعلى كل حال فإن الحب فى غلوائه وحدته الموجاء ، وما لا يبرح يفزره من عقارب الغيرة و يعصف به من نوازيها ، غير موجب للطمأنينة الى قيام بنيان الأسرة عليه . و إنما يقوم البيت وتثبت دعائمه على ما يربط رجلا وامراة من اشتراك الشعور والنقاء الذوق وتوافق المزاج .

وليذكر من يشفقون من تبعات الأولاد مرحلة العمر الأخيرة ، وما لا بد يقعد بهم وقتئذ من عجز ، وما يرين عليهم من وحشة ، فالأولاد مهما قيل فى عقوقهم ، الذخيرة يوم لا ذخيرة . واذا تجاوزنا الجانب المادى الى العاطفى ، فهم قرة عين لآبائهم و بهجة قلب .

و إن الأب الفانى على فراش النزع يجود بالروح ، انما يذكر أولاده ويحرص على التفافهم حوله وهو يلفظ آخر نسمات الحياة ، لأنه — لاريب — يتعزى عن فقد الحياة بوجودهم ، ويشعر أنه بجسده وروحه حى فيهم . فهم العزاء حين ينقطع كل عزاء .

هذا حكم الزواج ، وهو أمر واقع لا محالة . وعاجله خير من آجله . وهو — كما رأينا — حاجة نفسية لبنى الانسان فى أوله وآخره .

عبد الرحمن صدقى

— هلكتْ أمة تعيش بفرد وتموت بفرد .

— من بَغَى بسلاح الحق ، بُغِى عليه بسلاح الباطل .

— باني نفسه لا يبالى ما هدم .

— محاسنُ وجه الدار الجميلة ، ومحاسن وجه البلد الفنونُ الجميلة .

— من ساء خُلُقه اجتمع عليه نكد الدنيا .

— الطير لا تقرب أفقا فسد فضاؤه ، والحرية تهرب من بلد اختل قضاؤه .

— كاد صفح الوالد يسبق ذنب الولد .

شوقى